الرحلة والرحالون[1]

في القرون الوسطى

بين سقوط الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس واكتشاف امريكا في القرن الخامس عشر تمتد الف وتيف من السنوات تعرف عند المؤرخين بالقرون الوسطى ، ومع ان حوادث جسيمة قد تمت فيها فقد كانت الرقعة التي تشغلها بالنسبة الى العالم المعروف الآن صغيرة جدا لا تتجاوز حوض البحر الابيض المتوسط وواسط اوربا . وكان هذا الجزء المعروف تحيطهُ — في نظر الاوربيين على الخصوص — حجب الظلام الكثيفة ، فشواطئه الغربية تنتهي بالبحر الذي لا تخر السفن عبابه — بحر الظلمات — وفي شماله تقع مناطق الذعر والجليد والظلام ، وشرقه قفر آخره مساكن الاقوام المغولية المتوحشة . وجنوبيهُ ينتهي بالمنطقة الحارة التي لا تستطيع البشر ان تسكنها ، والتي فيها بحر تغلي المياه فيهِ باستمرار لشدة الحر ، حتى ان الاسماك لا تعيش فيهِ ، وكل هذه المناطق فيها من عجائب الخلق والهول ما يمنع الناس من الاقتراب منها بله الدخول فيها

وفي هذه المنطقة الضيقة وفي هذه القرون العشرة تمت الحوادث التي خلقت العالم الحديث بما فيهِ من نشاط ومدنية وعلم . ففيها سقطت الامبراطورية الرومانية التي كانت تتحكم في شؤون اكبر جانب من العالم المعروف عندئذٍ ، فانهار معها اكبر صرح سياسي اقتصادي عرف ، والغى القانون الروماني ، وصحبت ذلك هجرة القبائل الجرمانية وغيرها من مساكنها الاصلية واستيطانها في اوربا ، وتأسيسها امارات وممالك مضطربة ضعيفة على النظام الاقطاعي ، فانتشرت الفوضى وعمَّ النهب والسلب وغلبت القوة البدنية على الشرع والعرف والتقليد وحل السيف مكان القانون . وفيها خرجت امة كانت منتشرة في بادية العرب لا تجمعها رابطة دينية ولا تمسكها سلة سياسية حتى قام فيها محمد بن عبد الله فأوجد من تفرقها وحدة ، وخلق من تنازعها اتفاقاً وجعل من الوحدة والاتفاق المزوجين بالايمان قوة سارت مع خلفائهِ وقوادهِ حتى احتلوا في مائة سنة البلاد الواقعة بين النصين وبحر الظلمات ونشروا الاسلام في اكثر هذه البقاع . ثم عمدوا الى العلم والادب والاجتماع فحاطوها بعنايتهم واخرجوا منها للعالم خير الثمار واينعها واشهاها

وفيها توطدت النصرانية في الغرب واعتنقتها القبائل الجرمانية التي مرَّ بنا ذكرها وقويت البابوية وسيطرت على الحياة الدينية والعقلية في القسم الاكبر من اوروبا النصرانية ، حتى

---

(١) محاضرة تاريخية ألقاها المؤلف في النادي الشبيبي الارثوذكسي ببيت لحم (فلسطين)

كان لها الامر وعلى غيرها الطاعة، وحدث في هذه المدة أكبر اصطدام بين الشرق والغرب فقد بقيت جيوش الصليبيين طيلة القرنين الثاني عشر والثالث عشر تتدفق على الشرق محاولة تملكه والاستيلاء على موارده الغنية واماكن العبادة والتقديس فيه . ومع ان هذه الحروب قد انتهت بخيبة الاوربيين وبقاء هذه البلاد بيد الشرقيين فقد كانت بعيدة الاثر في خلق اوربا الحديثة وفي جميع مناحي الحياة في ذلك الوقت وبعد ذلك الوقت

وحياة البشر في كل عصر ومكان تتأثر بما يعتورها من جسيم الحوادث وعظيم الامور ولما كانت الرحلات والاسفار مظهراً من مظاهر الحياة والنشاط فلقد كانت خاضعة في حكمها لهذه القاعدة واذن فقد تأثرت بما ذكرنا ، وهذا ما سنتحدث عنهُ الآن

يهتم المسافرون على اختلاف نزعاتهم بان يكون الامن مستتبًّا في البلاد التي يرحلون اليها وان تشرف على البلاد حكومة قوية ليأمنوا على ارواحهم واموالهم ومتاجرهم ولتعنى بالطرق والبريد لتنظيم الرحلة والسفر والاتجار. وقد كان هذا متوافراً في عهد الامبراطورية الرومانية فلما سقطت سقط معها كل ذلك فقلَّ تنقل الناس في القسم الاول من القرون الوسطى . فلما قام العرب وانشأوا دولهم المتسعة في مشارق الارض ومغاربها وقاموا على تنظيمها وسهروا على مصلحة الشعوب التي حكموها عادت التجارة الى ما كانت عليهِ سابقاً بل اتسع نطاقها كثيراً وعاد الجوَّابون يخترقون الآفاق وقد ساعدهم على ذلك انتشار الاسلام في كثير من هذه الاقطار فكانوا موضع احترام القوم اينما حلوا وليس ادلّ على مدى اتساع الرحلة في عهد الدولة العربية من حديث ابن بطوطة وهو سائح عربي من اهل القرن الرابع عشر لشيلاد من مدينة طنجه فقد روى انهُ لما كان بالصين بلغهُ ان احد علماء المسلمين قدم المدينة فاتصل بهِ فعرف انهُ احد مواطنيه وقطن الى ان التقى به في دلهي بالهند . ولما ارتحل ابن بطوطه عن ذلك المكان وهبط اواسط افريقيا لقي فيها مواطناً آخر هو اخ للاول . وهكذا كان يلتقي رحالو العرب في اقصى البلدان وانأى الامكنة

على ان قيام الدول العربية في الشرق الادنى وقضاءها على البيزنطيين فيه اوجد في نفوس الاوروبيين شيئاً من الخوف فقلت زيارتهم حتى للاراضي المقدسة الى ان عرفوا خطأهم بعد وقت قصير

وقد سيطرت الكنيسة على الافكار والعقول سيطرة اخضعت كل رأي وتول لسلطانها وصار همّ كل باحث ان يوفق بين ما كان عند اليونان والرومان القدماء من علم وبين ما في الانجيل من ايمان فاذا تعارض الاثنان وجد الدارس في الثاني حصناً من الكفر والزيغان وملجأ من رجس الشيطان فاختلطت على الناس الآراء الجغرافية الصحيحة بالاساطير والمختلقات . وشاب الحقائق العلمية خرافات لا يقبلها عقل ولا يرضى بها منطق فصار العالم المعروف منطقته تحيط بها كل انواع الاخطار من كل جانب فلا سبيل اذن للخروج من مسكن الانسان لاكتشاف

مساكن الشيطان او الاهتداء الى منازل الرحمن . وغصبت اقوال فوزمس وازيدور الناس الدرس والتنقيب . فاعتقد الناس ان النجوم مصابيح يخرجها الله كل ليلة لينير الناس لان الشمس والقمر ضعف نورهما بسبب خطيئة الانسان . وان الارض يابس يحيط بها ماء ينتهي بالفضاء فاذا وصل امرؤ الى ذلك المكان هوى الى ابليس او الى جهنم — الى مثل هذه الاعتقادات . وان قوماً مثل هؤلاء ينتشر بينهم هذا النوع من التفكير السقيم لاينتظر منهم ان يخاطروا بانفسهم فيخرجوا ليستكشفوا هذه الاصقاع النائية

اضيفوا الى كل هذه الصعوبات الاخرى التي كانت تعترض المسافر طول المدة ، فان اركولف احتاج الى سبع سنوات لزيارة الاراضي المقدسة في القرن الثامن الميلادي . وقد استغرقت رحلة بنيامين التوديلي ثلاث عشرة سنة

على ان بعض اقوياء العزيمة من اهل ذلك الزمان ، وبعض المفكرين منهم ، لم يحل دونهم في الرحلة حائل . واكثر ماجاذبهم قوة العزيمة من الايمان والتدين فان زيارة الاماكن المقدسة والتبرك بلمس تراب البلاد التي عاش فيها (المخلص) دفعت الكثيرين الى الاستهانة بكل هذه الصعوبات لينالوا هذه القداسة أو ليحصلوا على الشهادة في البلاد نفسها . وفي هذا تتفق النصرانية والاسلام بل ان الاسلام يحتم ذلك . اذ يعتبر الحج احد اركان الاسلام الخمسة ، على من استطاع اليه سبيلا . ومن ثمّ عني الحجّاج — المسيحيون والمسلمون على السواء — بتدوين اخبارهم وما وقعت عليه أبصارهم ، وما طرق آذانهم ليساعدوا غيرهم في سيرهم وتنقلهم . وقد كان بين الحجاج عدد كبير من اليهود فان هذه الجماعة التي جرمت منذ هدريانوس — في القرن الثاني — الاقتراب من بيت المقدس والتي سمح لها قسطنطين في القرن الرابع بزيارة انقاض الهيكل في التاسع من شهر آب (اغسطس) من كل عام ، كانت تتوافد الى القدس في ذلك العصر من اسبانيا والشرق للقيام بفريضة الحج الدينية . وعندنا من هؤلاء الحجاج الحاج موسى لموتيداس ويهوذا هيلقي وبنيامين التوديلي

وقد شاعت آراء واعتقادات كانت ذات صبغة دينية ، كان من شأنها ان تحفز الكثيرين من المسيحيين الاولين الى الرحلات والاسفار وأهم من هذه ان بين الجزر الواقعة في البحر الغربي ، او قرب منابع النيل ، تقع (جنة الفردوس) وهذا الاعتقاد حمل الكثيرين على السفر من اجل الوصول الى هذا الفردوس . وهذه الفكرة نجدها مردّدة في كتابات كل الكتّاب المسيحيين الاول من القرن الرابع الى القرن الثاني عشر

وعني بعض الآباء الروحيين الاوربيين بزيارة فلسطين للحصول على الآثار المقدسة — وهي ما صاحب المسيح او رسله في حياتهم — اذ كانوا يتكسبون بعرضها على الناس ، وباستخدامها في شفاء الامراض وغير ذلك من الامور ، كما انه كان على بعض هؤلاء

ان يقوموا باسفار تبشيرية في اواسط آسيا وافريقيا للنشر النصرانية بين سكانها

ومما يعتبر باعثاً على زيارة الارض المقدسة خاصة — العقاب . فان بعض المجرمين كان يحكم عليهم بزيارة مولد المسيح وقبره ليخلصوا من جرائمهم ففي سنة ٨٨٥ حكم على خرومون ان يزور فلسطين، عقاباً على جريمة فقيّد بسلسلة والبس رداء خشناً، وعفر رأسه بالرماد ، وسار حافياً . ولكنهُ عاد بعد اربع سنوات ، فلم يعف البابا عنه فقام بالزيارة ثانية ، حتى قال رضي قداسته

ولعلَّ التجارة اكبر عامل الناس على الاسفار رغبة في نقل المتاجر ، والتعرف على الطرق واختيار افضل وسائل الكسب . ومن هؤلاء التجار من دوّن اخباره ووصف الاقليم وصفاً دقيقاً فيه الصحة كل الصحة ، والاسلام الذي شجع التجارة بالغدوة ، اذ كان النبي واصحابه تجاراً ، خدم العلم خدمات جلى من هذه الناحية

يمكننا مما مرَّ بنا ان نقسم الرحالين الى حجاج ومبشرين وتجار وعلماء. والحجاج المسيحيون الذين زاروا الاراضي المقدسة قبل القرن الثامن الميلادي خلفوا عن رحلاتهم آثاراً كثيرة ، بعضها فيه روح التحقيق ، واكثرها مجموعات من الاساطير والخرافات . وقد ازداد مجيء هؤلاء الحجاج في القرن العاشر تلبية لنداء البابا من جهة واعتقاداً بان مجيء المسيح الثاني قد قرب ومن ثمَّ فمن المهم ان يكونوا فيها لينالوا البركات . وحجاج هذه الفترة كانوا على درجة كبيرة من الجهل فلم يتركوا آثاراً قيمة والذي ابقوه على كل حال يميل الى هذه العقلية السخيفة التي كانت تمتاز بها الجماعة الاوروبية في ذلك الزمن . اما المبشرون فاتخذوا اواسط آسيا مركزاً لاعمالهم، اذ كانت همة البابا متجهة نحو تنصير القبائل المغولية التي اخذت تهاجم الشرق، وترعب اوروبا بقوتها وسطوتها . وقد اشتدت هذه الحركة بين القرن الحادي عشر والقرن الرابع عشر. وبعض ما كتبهُ هؤلاء المبشرون عن تلك البلاد من خير ما يمكن الرجوع اليه في درسها

والتجار الذين تركوا اخبار الاقطار التي زاروها ، وبحثوا في حالتها الاقتصادية والاجتماعية، كثيرون . وقد كان العرب اصحاب السبق في هذا المضمار . ومما وثق الاتصال التجاري بين الشرق والغرب ، وحل عن العقول بعض القيود ، الحروب الصليبية

والرحالون الذين كان رائدهم في الرحلة الرغبة في الدرس والبحث بلوا عدداً كبيراً ، ولكنهم جاءوا في القسم المتأخر من القرون المتوسطة . ومن العرب ابن جبير وابن بطوطة ومن الافرنج ماركوبولو . وهذا الاخير كان من التجار ايضاً . وهؤلاء الثلاثة اعلام الرحلة العلمية في تلك القرون . « فسياحات ماركوبولو » يعتبرها الكاتب الانكليزي المستر ولز بين الكتب التي اثرت في تطور العقل البشري . وكتابات ابن بطوطة يشهد لها في دقتها ان كلية غوردون في الخرطوم تدرس فصل «ابن بطوطة في السودان » لدقته . اما ابن جبير فمن يقرأ كتابه يقرأ كتابة سائح حديث مزود بطريقة التفكير الصحيحة « لها تتمة »